

مكانة الأسرة فى الإسلام

الشيخ / إبراهيم خليل عوض الله
الوكيل المساعد لدار الإفتاء الفلسطينية
فلسطين

تمهيد:

تبرز أهمية الأسرة من خلال وظائفها والدور الذى تؤديه للأفراد والمجتمعات على حد سواء، فيجد الفرد فيها سكنه وحمائته ورعايته وأمنه، وهى تلبي الحاجات الغريزية للزوجين، والحاجات الفطرية للأباء والأمهات والأبناء الخاصة بكل منهم نحو الآخر، فالإنسان يتطلع بفطرته لأن يكون له نسل، والابن يسعى بفطرته إلى أحضان والديه، والأسرة تحافظ على الأنساب، وتساهم بشكل فاعل فى تقوية الأواصر والوشائج بين الناس، وهى منبت للفضائل ومصدر للتربية، وهى فى المحصلة اللبنة الأساسية والأولى للمجتمع، الذى يتكون بناؤه من مجموعها.

ويأتى هذا البحث المتواضع ليسلط الضوء على دلالات تشير إليها بعض الآيات القرآنية فى مجال أهمية الأسرة، ليكون الحديث حول هذا الموضوع محددًا فى إطار تلك الآيات، فإن وفقنا فيه فذلك بفضل من الله ورضوان، وإن أخطأنا فمن عند أنفسنا، عسى الله أن يعيننا على قول الحق ويسدد خطانا فيه، وأن يغفر لنا عما أخطأنا، إنه سبحانه الغفور الرحيم.

أهمية الأسرة فى ضوء القرآن الكريم

للأسرة فى ضوء القرآن الكريم، أهمية تستنبط من خلال دلالات عديدة، منها:

(١) أن الله سبحانه وتعالى أقسم بأبى البشرية ورب الأسرة الأول — آدم عليه السلام — وبذريته الذين تناسلوا من بعده، فقال جل ثناؤه: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۚ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البعد: ٣-٤). وممن قال بأن الوالد هنا هو آدم، وما ولد ذريته، مجاهد، وقتادة، والضحاك، وسفيان الثوري وسعيد بن جبير، والسدى، والحسن البصري وغيرهم^(١).

وقدم ابن كثير تبريراً لاستحسانه هذا الرأى فى المراد من هذا القسم، فبين أنه تعالى لما أقسم بأَم القرى ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وهى أم المساكن، أقسم بعده بالمساكن وهو آدم أبو البشر، فكأنه أقسم بأصول الموجودات. (٢).

ويشير هذا القسم إلى أهمية الوالد والولد، وإذا ثبت ذلك لهما، فمن المنطقى أن تتسحب هذه الأهمية على المجموعة التى تنشأ منهما، وهى الأسرة، يقول الشنقيطى فى أضواء البيان: "بعد التأمل يظهر— والله تعالى أعلم أنه سبحانه — لا يقسم بشيء فى موضع دون غيره إلا لغرض يتعلق بهذا الموضوع، وقد يظهر ذلك جلياً وقد يكون خفياً، وهذا فعلاً ما تقتضيه الحكمة والإعجاز فى القرآن. (٣).

وينسب قطب للشيخ محمد عبده لفظة لطيفة خلال تفسيره لسورة البلد، يقول فيها: " ثم أقسم بوالد وما ولد، ليلفت نظرنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود — وهو طور التوالد — وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع، وإلى ما يعاينيه الوالد والمولود فى إبداء النشء وتكميل الناشئ، وإبلاغه حده من النمو المقدر له" (٤). يقول قطب: "وإن هذه العناية القصوى بأمر الأسرة لتتناسق مع مجرى القدر الإلهى بإقامة الحياة البشرية ابتداء على أساس الأسرة، حين جرى قدر الله أن تكون أول خلية فى الوجود البشرى هى أسرة آدم وزوجه، وأن يتكاثر الناس بعد ذلك من هذه الخلية الأولى، وكان الله — سبحانه — قادراً على أن يخلق الملايين من الأفراد الإنسانيين دفعة واحدة، ولكن قدره جرى بهذا لحكمة كامنة فى وظيفة الأسرة الضخمة فى حياة هذا المخلوق، حيث تلبى حياة الأسرة فطرته واستعداداته، وتتمى شخصيته وفضائله، ويتلقى فيها أعرق المؤثرات فى حياته، ثم جرت هذه العناية فى النظام الإسلامى — منهج الله الأخير فى الأرض — مع القدر الإلهى فى خلقه الإنسان ابتداء، كما هو الشأن فى تناسق كل ما يصدر عن الله بلا تفاوت ولا اختلاف" (٥).

(٢) سميت بعض السور القرآنية بأسماء ذات صلة بالقضايا الأسرية، وهى تقارب العشرين سورة، فالسورة الثالثة فى ترتيب القرآن، سميت باسم إحدى الأسر، وهى آل عمران، والسورة الرابعة من أكبر السور القرآنية هى سورة النساء، والسورة الخامسة سميت بالمائدة، والمائدة من الأثاث الذى تستخدمه الأسرة، وسورة الحجرات نسبة إلى البيوت التى كان يقيم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، وسورة المجادلة، مسماة بهذا الاسم نسبة لقصة المرأة التى جادلت الرسول صلى الله عليه وسلم بشأن زوجها الذى ظاهر منها، وسورة الممتحنة نسبة إلى امتحان النساء المهاجرات، ومعلوم أن مما يترتب على ذاك الامتحان بعض القضايا الزوجية التى تتعلق بشرط الإيمان، وإباحة الزواج وتحريمه فى بعض الحالات، وسورة الطلاق، فهى مسماة بقضية أسرية واضحة، والتحريم،

تتعلق بمناسبة ذات صلة بأحداث أسرية وقعت في بيت النبوة، والمزمل والمدثر سورتان اشتق اسماهما من فعل ذى صلة بالرسول صلى الله عليه وسلم وامراته خديجة، حين جاءها مرتعشاً مرتعداً من آثار اللقاء بالوحى في أوائل التكليف بالرسالة، فجاءها طالباً أن تزملة وتدثره بأغطية بيتية، وتتعلقان بالنوم والراحة البيتية. وسورة الإنسان نسبة للجنس البشري، وهى تتحدث عن خلق الإنسان. وسورة التين تتعلق بغذاء أسرى، وسورة العلق تتعلق بخلق الإنسان، وسورة التكاثر تتعلق بالتناسل، وسورة الهمزة تتعلق بسلوك بشرى، وسورة الماعون يشمل مسماها الأدوات المستخدمة فى معيشة الأسرة، وعملها، وتعاملها مع الآخرين، وسورة المسد تتعلق بأحد بيوت الكافرين، وسورة الفلق والناس تتعلقان ببعض السلوك ذى الصلة بالمشاكل الأسرية.

هذا بالإضافة إلى تعرض بعض مطالع السور القرآنية لقضايا أسرية بشكل مباشر، مثل سورة النساء، والنور، والمجادلة، والطلاق، والتحريم، والمزمل، والمدثر، والإنسان، والعلق، والتكاثر، والهمزة، والناس. بمعنى أن الآية الأولى من كل سورة من تلك السورة تعرضت بالذكر أو الإشارة لجانب ما من جوانب القضايا الأسرية أو متعلقاتها.

(٣) إن الأسرة تحقق كثيراً من الخيرات لأفرادها، فبسبب أحدهم قد تحل البركات على عامتهم، كالدعاء لأهل البيت الصالحين بالرحمة والبركة، الذى من شواهد ما ذكره القرآن الكريم بحق أهل إبراهيم عليه السلام، ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ (هود:٧٣).

فهذه الآية الكريمة تنقل تحية الله لإبراهيم على السنة الملائكة حين دخلوا عليه، وجاء الدعاء شاملاً له ولأهل بيته، بدليل أن الملائكة حين أقبلت تمشى فى صورة رجال شباب حتى نزلوا على إبراهيم عليه السلام، فلما رآهم أجلمهم، فراغ إلى أهله، فجاء بعجل سمين، ثم أعلنت لهما البشرى بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب (٦).

وفى الحديث الشريف ما يؤكد انتفاع عناصر الأسرة بصلاح بعضهم البعض وخيراتهم، ففى صحيح البخارى عن عبد الله بن أبى أوفى، قال: "كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقته، قال: [اللهم صل على آل فلان. فأتاه أبى بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبى أوفى] (٧).

وعن أنس قال: " دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنَا وَأُمِّي وَأُمُّ حَرَامٍ خَالَتِي، فَقَالَ: قُومُوا فَلَأُصَلِّيَ بِكُمْ فِي غَيْرِ وَقْتِ صَلَاةٍ، فَصَلَّيْنَا، فَقَالَ رَجُلٌ لثَابِتٍ: أَيْنَ جَعَلْتَ أَنْسًا مِنْهُ، قَالَ: جَعَلْتُهُ عَلَى يَمِينِهِ، ثُمَّ دَعَا لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ بِكُلِّ خَيْرٍ مِنَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَالَتْ أُمِّي: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ خُودِمُكَ ادْعُ اللَّهَ لَهُ، قَالَ: " فَدَعَا لِي بِكُلِّ خَيْرٍ، وَكَانَ فِي آخِرِ مَا دَعَا لِي بِهِ

أَنْ قَالَ: اللَّهُمَّ أَكْثَرُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ " (٨).

٤) كرر القرآن الكريم ذكر البيت في معناه الأهم وهو مأوى الأسرة، فورد استخدامه في معانيه المتنوعة خمساً وستين مرة، منها ثلاث وأربعون مرة بمعنى منازل الناس التي يلوذون إليها في معاشهم ومنامهم وعشرتهم في الدنيا، على مختلف صور تلك المنازل، حصوناً كانت أو خياماً أو بيوت حجر، وسواء أكانت للأنبياء أم لغيرهم من الناس، فالبيت من أساسيات الأسرة، وهو مأوى أفرادها، وتكرار ذكره يشير إلى أهميته، والاهتمام بساكنيه.

وذكر البيوت في القرآن الكريم يشير إلى أهميتها من ناحية تكرار الذكر، ومن ناحية الدور الذي تؤديه لإيواء الأسر، فتشكل البيوت بما تأوى من أسر ملاذاً للسكن والراحة والأنس والسكينة، ففي الحالات السوية يجد المرء الطمأنينة والهدوء والراحة في بيته، وبين أسرته، فيمن الله على خلقه بنعمة السكن، الذي يتمتعون بخيراته، سواء قصد به البيوت، أو الإلف، فيقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ

جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾. (النحل: ٨٠)

يقول ابن كثير: "يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها ويستترون بها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع" (٩). والسكن هو ما يسكن فيه كالبيوت، أو يسكن إليه. (١٠).

ورد في كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير: "من نعم الله التي يمن بها على خلقه، السكن في البيوت. فالمساكن لها منفعتان:-

إحداهما السكن فيها لأجل الاستتار، فهي كلباس الزينة من هذا الوجه.

والثانية: وقاية الأذى من الشمس والمطر والريح ونحو ذلك" (١١).

يقول قطب: "إن آيات نظام الأسرة في القرآن الكريم تدل على خطورة شأن الأسرة في النظام الإسلامي، فالإسلام نظام أسرة. البيت باعتباره مثابة وسكناً، في ظله تلتقى النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة والطهر؛ وفي كنفه تنبت الطفولة، وتدرج الحداثة؛ ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل" (١٢). ويقول: "السكن والطمأنينة في البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون، الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة" (١٣).

٥) تكرر التعبير عن الأسرة بلفظ الأهل باشتقاقه المتعدد، وصيغته المختلفة، في أكثر من

خمسین موضعاً من القرآن الكريم، علماً أن لفظ الأهل نسب فيه لأمر عدة، كان منها النسبة للأقارب، الأقرب والأبعد — الأسرة النووية والممتدة —. ويشير الجدول إلى الأمور التي نسب إليها

لفظ الأهل فى القرآن الكريم، والتي شملت فى معانيها العامة: الأقارب والكتاب والأماكن والقيم، مع الإشارة إلى بعض المعانى الفرعية التى نسب إليها لفظ الأهل.

جدول الأمور التى نسب إليها لفظ الأهل فى القرآن الكريم:

المعنى العام	معنى ١	ت	معنى ٢	ت	معنى ٣	ت	معنى ٤	ت	المجموع
الأقارب		٣٥							٥٣
الكتاب	عام	٣١	الإنجيل	١					٣٢
الأماكن	البيت الحرام	٢	الأرض	٣	القرى	٨	القرية	٧	٢٠
	قرية	١	المدينة	٥	مدین	٢	يثرب	١	٩
	البيت	٤	السفينة	١	النار	١			٦
قيم إيجابية	التقوى	٢	المغفرة	١	الذكر	٢	الأمانات	١	٦
قيم سلبية	المكر	١							١
المجموع		٩٤		١١		١ ٣		٩	١٢٧

يتبين من الجدول أن مجموع استخدامات لفظ الأهل فى القرآن الكريم بلغ ١٢٧ استخدامًا، وأن أكثر استخدام له كان للتعبير عن الأقارب سواء الأبعدون منهم أم الأقربون حيث بلغ مجموع هذا الاستخدام ٥٣ مرة فى القرآن الكريم، وجاء فى المرتبة الثانية نسبة الأهل إلى الأماكن، حيث بلغ ٣٥ مرة، منها ثمانى مرات للقرى، وسبع للقرية، وخمس للمدينة، وثلاث إلى الأرض، مرتان لكل من البيت الحرام، ومدین، ومرة واحدة لكل من يثرب، والسفينة، والنار، وقرية. ثم فى المرتبة الثالثة جاء نسبة لفظ الأهل إلى الكتاب، حيث بلغ ٣٢ مرة، منها ٣١ مرة نسبة إلى الكتاب بشكل عام، ومرة واحدة نسبة إلى الإنجيل. أما المرتبة الرابعة فكانت للقيم، حيث ورد نسبة الأهل إليها سبع مرات، منها ست للقيم الإيجابية، منها اثنتان لكل من التقوى والذكر، ومرة واحدة لكل من المغفرة، والأمانات، وبقي مرة واحدة للقيم السلبية، التى نسب فيها لفظ الأهل إلى المكر.

ويلاحظ كذلك من الجدول أن الاستخدام الأغلب للفظ "الأهل" فى القرآن الكريم كان فى نسبة الأهل للأمور المرغوبة كالأقارب، وأماكن العيش والعبادة، والكتب السماوية، والمعانى الفاضلة، ولم يخرج عن هذه القاعدة سوى موضعين كانت النسبة فى أحدهما إلى النار، وفى الآخر إلى المكر، وقد حظى استخدام لفظ "الأهل" فى التعبير عن الانتساب إلى الأقارب - الأسر فى صورتها

النوعية والممتدة - بنصيب الأسد، حيث بلغت مواضع هذا الاستخدام ما يقارب نصف الاستخدام الكلى لهذا اللفظ فى القرآن الكريم.

لفظ "الأهل" فى اللغة والاصطلاح: ورد فى لسان العرب، يقال أهل الرجل وأهل الدار، وأهل الرجل عشيرته وذوو قريبه والجمع أهلون^(١٤). وفى الحديث: عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله أهلين من الناس، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته"^(١٥). وأهل القرآن هم حفظة القرآن، العاملون به، هم أولياء الله، والمختصون به اختصاص أهل الإنسان.

ويقال أهل الرجل زوجه، والتأهل التزوج، وفى الحديث: "أن النبى أعطى الأهل حظين، والعزب حظاً"، الأهل الذى له زوجة وعيال، والعزب الذى لا زوجة له، ويروى الأعزب وهى لغة رديئة، واللغة الفصحى العزب، يريد بالعطاء نصيبهم من الفىء، وآل الرجل أهله^(١٦).

خاطب الله تعالى نوحاً فقال: ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ

عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ (هود: ٤٠)، فسأل نوح النجاة لابنه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾

(هود: ٤٥)، فقال تبارك وتعالى: ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ...﴾

(هود: ٤٦)، أى ليس من دينك، قال: والذى يذهب إليه فى معنى هذه الآية أن معناه، أنه ليس من أهلك الذين أمرناك بحملهم معك، فقد أعلمه الله أنه أمره بأن يحمل من أهله من لم يسبق عليه القول من أهل المعاصي، ثم بين ذلك فقال: إنه عمل غير صالح^(١٧).

واستثنيت امرأة لوط من أهله: أى أسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسر بها، واتركها فى قومها، فإنها هالكة معهم^(١٨).

وإن من أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن أن زوجة الرجل يطلق عليها اسم الأهل،

وباعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر، ومنه قوله تعالى فى موسى ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ

أَمْكُثُوا﴾ وقوله: ﴿سَاتِيكُمْ﴾ وقوله: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ﴾ والمخاطب امرأته، وقد أجمع أهل اللسان

العربى على تغليب الذكور على الإناث فى الجموع ونحوها، كما هو معلوم فى محله. وبهذا يُردُّ

على من قال إن الضمير فى قوله ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ وفى قوله ﴿وَيُطَهِّرَ كَرَّمُ تَطْهِيراً﴾

ضمير الذكور، فلو كان المراد نساء النبى صلى الله عليه وسلم، ل قيل ليذهب عنكن ويظهركن^(١٩).

فالآية شاملة لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ولعلی والحسن والحسين وفاطمة.
وقيل الأهل أعم من الآل، يقال: أهل الكوفة، وأهل البلد، وأهل العلم، ولا يقال آل الكوفة،
وآل البلد، وآل العلم، فكأنه قال الأهل هم خاصة الشيء من جهة تغليبهم عليهم، والآل خاصة الرجل
من جهة قرابة أو صحبة (٢٠).

والرجل سمي عزباً لبعده عن الأهل (٢١).

وفى المباهلة يقول الزمخشري: خص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب،
وربما فداهم الرجل بنفسه، وحارب دونهم حتى يقتل (٢٢).

وورد على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى بأبى وغيره
ممن ينتظمه لفظ الأهل جميعاً من النساء والذاري (٢٣).

٦) تحقق الأسر فوائد جمة للناس، ففيها يسكن عناصر الأسرة بعضهم لبعض، وتكون المودة
والرحمة عماد العلاقات الأسرية، فمع ضرورة مبانى البيوت المادية للسكن، إلا أنها تعجز
عن تحقيق نتائجها المرجوة دون أن تكون عامرة بالأهل، فالزواج سكن ومودة، وهو أحد أهم
مكونات الأسر ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً
وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم: ٢١)، يرى البعض أن المراد بالأزواج هنا، هو:
حواء (٢٤). عن قتادة قال: خلق آدم، ثم خلق زوجته منه (٢٥). ويضعف الرازي اعتبار المراد من
الأزواج هنا حواء، لأن قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (النحل: ٧٢) خطاب للكل، فتخصيصه
بآدم وحواء خلاف الدليل، بل هذا الحكم عام فى جميع الذكور والإناث، والمعنى أنه تعالى خلق
النساء ليتزوج بهن الذكور (٢٦).

فقوله: ﴿تَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أى لتأوا إلى الأزواج (٢٧). فالله خلق أزواجاً تتناسبكم وتتاسبونهن،
وتشاكلنكم وتشاكلونهن (٢٨). والإنسان بجنسه أنس وإليه أسكن (٢٩).

وفى هذه الآية الكريمة امتن الله على بنى آدم، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم
وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته أن
خلق من بنى آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، وهذا من أعظم المنن، كما أنه من
أعظم الآيات الدالة على أنه جل وعلا هو المستحق أن يعبد وحده ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴿٣٠﴾.

وبالنسبة للمقصود بالمودة والرحمة بين الزوجين، فقيل إن المودة: كناية عن الجماع^(٣١). وقيل هي المحبة، وروى معناه عن ابن عباس، قال: المودة حب الرجل امرأته^(٣٢). فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين^(٣٣). وقيل المودة للشابة^(٣٤).

والرحمة: قيل إنها كناية عن الولد^(٣٥). وقال السدي: الرحمة الشفقة. وروى معناه عن ابن عباس قال: الرحمة، رحمته إياها أن يصيبها بسوء^(٣٦). وقيل الرحمة للعجز، والمودة للشابة^(٣٧). وقيل: المودة والرحمة، عطف قلوبهم بعضهم على بعض^(٣٨). وذلك أن الزوجين يتوادان ويتراحمان من غير رحم بينهما^(٣٩).

وقيل المودة والرحمة من الله، والفرك من الشيطان، أى بغض المرأة زوجها، وبغض الزوج امرأته من الشيطان، والتواد والتراحم بينهما بسبب الزواج من الرحمن.
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون أن قوام الدنيا بوجود التناسل^(٤٠).

٧) ومن دلالات أهمية الأسرة في ضوء القرآن الكريم، أن الإسلام وضع أصولاً لمنهج يؤلف دستوراً كاملاً شاملاً دقيقاً لنظام الأسرة؛ وتتناول كل جزئية من شئونها. وتدل تلك الأصول بكثرتها وتنوعها ودقتها وشمولها، على مدى الأهمية التي يعقدها المنهج الإسلامى للحياة الإنسانية على مؤسسة الأسرة الخطيرة! ويتناسب ذلك أيضاً مع طبيعة الإسلام الكلية. فالذى ينظر فى تشريعات الأسرة فى القرآن والسنة، فى كل وضع من أوضاعها، ولكل حالة من حالاتها، وينظر فى التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات، وفى الاحتشاد الظاهر حولها بالمؤثرات والمعوقات؛ وفى ربط هذا الشأن بالله مباشرة فى كل موضع، يدرك إدراكاً كاملاً ضخامة شأن الأسرة فى النظام الإسلامى، وقيمة هذا الأمر عند الله، وهو يجمع بين تقواه - سبحانه - وتقوى الرحم فى أول سورة النساء، حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ كما يجمع بين عبادة الله والإحسان للوالدين فى سورة الإسراء، وفى غيرها: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وبين الشكر لله والشكر للوالدين فى سورة لقمان ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَلَدَيْكَ﴾^(٤١).

٨) يمثل عناصر الأسرة كالأزواج والأبناء، قرّة عين منشودة، لأزواجهم وآبائهم، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (الفرقان: ٧٤).

فما المقصود بقرّة العين؟ وكيف يكون الأولاد والأزواج قرّة عين؟

قرّة العين، يحتمل أن تكون من القرار، لأن ما يسر يقر النظر به، ولا ينظر إلى غيره. ويحتمل أن تكون من القر وهو الأشهر، وهو البرد؛ لأن العرب تتأذى بالحر وتستريح إلى البرد. وقرّة العين كناية عن السرور والفرح، فدمع السرور بارد، ودمع الحزن ساخن، فمن هذا يقال أقر الله عينك، وأسخر الله عين العدو، على معنى جعله خائفاً مترقباً ما يحزنه، ينظر يميناً وشمالاً وأماماً ووراء، لا يدري من أين يأتيه ذلك، بحيث تسخن عينه لمزيد الحركة التي تورث السخونة^(٤٢).

قال الزجاج: يقال: أقر الله عينك، أى صادف فؤادك ما يحبه، ومن الأقوال فى قرّة العين: أحدها برد دمعها، لأنه دليل السرور والضحك، كما أن حره دليل الحزن والغم، والثانى نومها؛ لأنه يكون مع فراغ خاطر وذهاب الحزن، والثالث حصول الرضا^(٤٣).

كيف يكون الأولاد والأزواج قرّة عين؟

المؤمن إذا رأى أهله قد شاركوه فى الطاعة قرت عينه وسر قلبه، وتوقع نفعهم له فى الدنيا حياً وميتاً، ولحوقهم به فى الآخرة، أنه كان فى أول الإسلام يهتدى الأب والابن كافر، والزوج والزوجة كافرة، فلا يطيب عيش ذلك المهتدى فكان يدعو بما ذكر^(٤٤).

وسئل الحسن عن قوله قرّة أعين فى الدنيا أم فى الآخرة؟ قال: لا بل فى الدنيا، وأى شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وولده يطيعون الله، والله ما طلب القوم إلا أن يطاع الله فتقر أعينهم^(٤٥).

قال ابن عباس: يعنون من يعمل بطاعة الله فتقر به أعينهم فى الدنيا والآخرة. قال عكرمة: لم يريدوا بذلك، صباحة ولا جمالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين. وقال الحسن البصرى أيضاً عن هذه الآية: أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدًا، أو ولد ولد، أو أخًا، أو حميمًا مطيعًا لله عز وجل، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعنى يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام. وقال ابن جريح: يسألون الله لهم أن يعبدوه، فيحسنون عبادته^(٤٦).

يقول ابن كثير: " إن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد

الله وحده لا شريك له". وهذا ما قاله الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۚ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٤٧).

يقول قطب: "إن عباد الرحمن يطلبون الذرية الصالحة، ويرجون أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم، وأن تكون لهم أزواج من نوعهم؛ فنقر بهم عيونهم. وتطمئن بهم قلوبهم، ويتضاعف بهم عدد عباد الرحمن، ويرجون أن يجعل الله منهم قدوة طيبة للذين يتقون الله ويخافونه، وهذا هو الشعور الفطري الإيمانى العميق: شعور الرغبة فى مضاعفة السالكين فى الدرب إلى الله، وفى أولهم الذرية والأزواج، فهم أقرب الناس تبعه، وهم أول أمانة يسأل عنها الرجال (٤٨).

٩) يعبر عن الإحساس بأهمية الأسرة، حرص بعض من حرم أنسها فى الدنيا، على تمنى العوض عنها فى الجنة ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتٍ فِرْعَوْنُ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (التحریم: ١١).

فامرأة فرعون اختلفت مع زوجها فى المبدأ والدين، فضاقت بها رحاب القصور، فلم تعوضها تلك الرحاب عن دفء الأسرة والسكينة فيها، بدليل أنها طلبت بديلاً أسرياً فى دعائها، لكن بمواصفات أخرى، فطلبت بيتاً فى الجنة، فى إشارة إلى أنها لم تحظ بالبيت المنشود فى الدنيا، رغم أنها عاشت فى قصور فرعون، لكنها لم تجد فى تلك القصور السكينة والطمأنينة. فاختارت فى طلبها حسن الجوار قبل الدار، بدليل تقديم ﴿ عِنْدَكَ ﴾ فى قولها ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ مما يبرز هذه الغاية، ويشير إليها بوضوح (٤٩).

١٠) ومن أدلة مكانة الأسرة وأهميتها لدى الخلق، أنها تكون دائماً وأبداً محط رعاية العقلاء ذوى الطباع السوية من أوليائها وأربابها، فها هم الأنبياء يولون أسرهم عين رعايتهم، وخالص أدعيتهم، كنوح عليه السلام الذى ينسب القرآن إليه قوله ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ (نوح: ٢٨).

فنوح عليه السلام يبدى حرصه على عناصر أسرته، بطلبه المغفرة لهم من الله، ويعم هذا الحرص ليشمل ضيوف أسرته المؤمنين.

(١١) تقوم الأسرة بدور في غاية الأهمية في مجال الحفاظ على الوجود البشري، فقدّر الله سبحانه وتعالى أن يتم التناسل البشري، وتكاثره عن طريق الزواج، الذي يشكل العمود الفقري للوجود الأسري والإنساني، وعلى الصعيد الإنساني الشخصي، فإن الإنسان يحرص بفطرته على أن تكون له ذرية، يبتهج بهم في حياته، ويبقون أثرًا له بعد وفاته، ولا يتم له ذلك إلا في ظل أسرة ينشئها ويرعى أمرها، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ (النحل: ٧٢)

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام، وأنه خلق من آدم زوجة، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (٥٠).

يقول قطب: "إن الأسرة هي المؤسسة الأولى في الحياة الإنسانية، الأولى من ناحية أنها نقطة البدء التي تؤثر في كل مراحل الطريق، والأولى من ناحية الأهمية؛ لأنها تزاوّل إنشاء العنصر الإنساني وتنشئته، وهو أكرم عناصر هذا الكون، في التصور الإسلامي" (٥١).

(١٢) يدلّ تقاسم الأدوار في الأسرة على منطقية التقاسم الوظيفي بين الخلق، فهي النموذج المصغر للمجتمع الإنساني العام، ولكل عنصر من عناصرها دوره الذي يناط به بناءً على مؤهلاته، وقدراته، فللزوجة مهماتها، وللزوج مهماته، وللوالدين دور في رعاية الأبناء، وللأبناء دور في برهم، وهكذا الوظائف والأدوار في الحياة كلها، فلكل دوره ووظيفته، وعند تضافر الأدوار تتحقق مصالح الجميع، ويسير مركب الحياة، فالرجال يؤدون دور القوام والإنفاق في الأسرة، والنساء يقمن بدور صمام الأمان لسكن الأسرة وطمأنينتها على أخلاقها ووجودها المادي والأخلاقي في إطار شرع الله ودينه، يقول تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالَّذِينَ حَسِبْتَ حَفِظْتَ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ (النساء: ٣٤) يقول قطب: "الإسلام نظم مؤسسة الأسرة؛ وضبط الأمور فيها؛ ووزع الاختصاصات، وحدد الواجبات فيها؛ وبين الإجراءات التي تتخذ لضبط أمور هذه المؤسسة" (٥٢).

ويطنب قطب في إجلاء جوانب هذه القضية، فيقول: "إن النص القرآني الذي يكلف الرجل بالقوامه يجيء في سبيل تنظيم المؤسسة الزوجية، وتوضيح الاختصاصات التنظيمية فيها، لمنع الاحتكاك فيها بين أفرادها، بردهم جميعًا إلى حكم الله، لا حكم الهوى والانفعالات

١٣) تمثل الأسرة ممثلة بأهم مرتكزاتها وهو الزواج شكلاً واضحاً من أشكال التوحد والاندماج، وقد صور القرآن الكريم الاقتران الوطيد بين طرفي الأسرة الرئيسيين، بحال يدل على ذروة التوحد، فقال تعالى مخاطباً الأزواج ﴿هَنَ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧) وفي لسان العرب: لباس كل شيء غشاؤه، ولباس الرجل امرأته، وزوجها لباسها، فهما مثل اللباس لبعضهما بعضاً (٥٤).

وفي حديث على أنه بعث ابنته أم كلثوم إلى عمر رضى الله عنهم لما خطبها، فقال لها: قولى له أبى يقول هل رضيت الحلة؟ كنى عنها بالحلة، لأن الحلة من اللباس، ويكنى به عن النساء، كما فى الآية السابقة (٥٥).

يذكر الرازى فى تشبيه الزوجين باللباس وجوهاً، منها:

أحدها: أنه لما كان الرجل والمرأة يعتنقان، فيضم كل واحد منهما جسمه إلى جسم صاحبه، حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذى يلبسه، سمي كل واحد منهما لباساً. قال الربيع: هن فراش لكم، وأنتم لحاف لهن. وقال ابن زيد: يريد أن كل واحد منهما يستر صاحبه عند الجماع عن أبصار الناس.

وثانيها: إنما سمي الزوجان لباساً ليستر كل واحد منهما صاحبه عما لا يحل، وهذا ما اتفق معه ابن العربى فى أحكام القرآن، حيث قال: إن كل واحد منكم متعفف بصاحبه، مستتر به، عما لا يحل له من التعرى مع غيره (٥٦).

وثالثها: أنه تعالى جعلها لباساً للرجل من حيث إنه يخصها بنفسه، كما يخص لباسه بنفسه، ويراهها أهلاً لأن يلاقى كل بدنه كل بدنها، كما يعملها فى اللباس.

ورابعها: يحتمل أن يكون المراد ستره بها عن جميع المفاصل التى تقع فى البيت، لو لم تكن المرأة حاضرة، كما يستتر الإنسان بلباسه عن الحر والبرد، وكثير من المضار.

وخامسها: ذكر الأصم، أن المراد أن كل واحد منهما كان كاللباس الساتر للآخر فى ذلك المحذور الذى يفعلونه، ويضعف الرازى هذا الوجه؛ لأنه تعالى أورد هذا الوصف على طريق الإنعام علينا، فكيف يحمل على التستر بهن فى المحذور (٥٧). ويؤكد ابن الجوزى بعض هذه الآراء فى تفسير المراد من اللباس هنا، فيذكر فى زاد المسير قولين فى هذه الآية:

أحدهما: أن اللباس السكن، ومثله ﴿جَعَلَ لَكُمْ أَلِيلَ لِبَاسًا﴾ (الفرقان: ٤٧) أى سكناً.

والثاني: أنهن بمنزلة اللباس لإفضاء كل واحد ببشرته إلى بشرة صاحبه، فكفى عن اجتماعهما متجردين باللباس. وينقل عن الزجاج قوله أن العرب تسمى المرأة لباساً وإزاراً^(٥٨). فالأسرة بهذا تستحق أن تكون عنواناً للوفاق والوحدة بين الأطراف المتجانسة، فى الخلق والمنهج والفكر والعقيدة.

(١٤) تتشكل نواة الأسرة من زوجين، وهى بهذا تتجاوب مع سنن الله فى الخلق، حيث خلق سبحانه من كل نوع صنفين - زوجين - ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩). يقول قطب فى الظلال: "ينبثق نظام الأسرة فى الإسلام من معين الفطرة وأصل الخلق، وقاعدة التكوين الأولى للأحياء جميعاً وللمخلوقات كافة"^(٥٩). ويضيف: "السنة التى نعلمها عن كل خلق الله هى الزوجية، فهى سنة جارية، وهى قاعدة فى كل خلق الله أصيلة"^(٦٠).

والزوج فى اللغة خلاف الفرد، يقال زوج أو فرد، كما يقال شفع أو وتر، وقال تعالى:

﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ وكل واحد منهما أيضاً يسمى زوجاً، ويقال هما زوجان للاثنتين، وهما زوج، كما يقال هما سيان، وهما سواء، فالسماء زوج، والأرض زوج، والشتاء زوج، والصيف زوج، والليل زوج، والنهار زوج. ويجمع الزوج أزواجاً^(٦١).

قوله تعالى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أى مصطحبين ومتلازمين. قال مجاهد: معناه أن هذه إشارة إلى المتضادات والمتقابلات من الأشياء، كالليل والنهار، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والأرض والسماء، والسواد والبياض، والصحة والمرض، والكفر والإيمان، والجن والإنس، والبر والبحر، والشمس والقمر، وبكرة وعشية، ونحو هذا، ورجح الطبرى بأنه دل على القدرة التى توجد الضدين، بخلاف ما يفعل بطبعه فعلاً واحداً كالتسخين والتبريد. وقال ابن زيد وغيره: هى إشارة إلى الأنثى والذكر من كل حيوان؛ فالزوجان صنفان ونوعان مختلفان، كالشمس والقمر، والبر والبحر، والسهل والجبل، والشتاء والصيف، والنور والظلمة، والسعادة والشقاوة، والجنة والنار، والحق والباطل، والحلو والمر، والموت والحياة. فجميع المخلوقات أزواج حتى الحيوانات والنباتات^(٦٢).

(١٥) تشكل الأسرة مظلة للأزواج يلبون فيها حاجاتهم الفطرية والغريزية، ويتمكن الواحد منهما أن يجد نصفه الآخر بزوجه، ليصلا مستوى التكامل فى الأدوار الطبيعية والحياتية. ^(٦٣). وبهذا يتحقق الانسجام مع الأساس الذى خلق الله عليه جميع الخلق. ويتم تلبية تلك الحاجات الغريزية بطريقة تتسم بالطهر والتعذيب والستر، بهدف تحقيق الإحصان. يقول قطب: "إن الإسلام

ينظم دوافع الفطرة ويظهرها، ولا يحاربها ولا يستفذرها، ويقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية، التي تربط بين الزوجين. ويدعو الإسلام الأمة المسلمة لتزويج رجالها ونسائها، ومساعدتهم في التغلب على العقبات التي تعترض تحقيق هذه الغاية، قال تعالى:

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ﴾ (النور: ٣٢).

وهنا تبرز سماحة الإسلام، الذي يقبل الإنسان كما هو، بميوله وضروراته، لا يحاول أن يحطم فطرته باسم التسامى والتطهر؛ ولا يحاول أن يستفذر ضروراته التي لا يد له فيها؛ إنما يحاول فقط أن يقرر إنسانيته ويرفعها، ويصله بالله وهو يلبي دوافع الجسد، يحاول أن يخلط دوافع الجسد بمشاعر إنسانية أولاً، وبمشاعر دينية أخيراً؛ فيربط بين نزوة الجسد العارضة وغايات الإنسانية الدائمة ورفرفة الوجدان الديني اللطيف؛ ويمزج بينها جميعاً في لحظة واحدة، وحركة واحدة، واتجاه واحد، ذلك المزج القائم في كيان الإنسان ذاته^(٦٤).

وإشباع حاجات الزوجين الطبيعية والغريزية بالزواج، ينظر إليه على أنه من الطيبات التي ترغب إليها الأنفس ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣) أى اتكحوا ما وقع عليه اختياركم من النساء، فاختاروا على نظركم، وفي هذه الآية أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل قد أباح له الشارع النظر إلى من يريد تزوجها ليكون على بصيرة من أمره^(٦٥).

ومن أحسن ما يختار من ذلك، صفة الدين كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "تتكح المرأة لأربع؛ لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"^(٦٦).

وأن تلبية الحاجات الغريزية والنفسية للخلق بالزواج الذي يتم في إطار الأسرة، تفضي إلى حماية الأخلاق والقيم، والمجتمعات من الفواحش، وردائل الأخلاق؛ إذ تجد النفوس السوية شفاءها بهذه التلبية، وتبقى النفوس المنحرفة تتطلع لما بعدها من محرمات، وهي بذلك تعيث في الأرض الفساد.

١٦) تشكل الأسرة مأوى للأطفال، يتلقون فيها الرعاية والحفظ والتربية، ففي الأسرة يتلقى الطفل الرعاية، في الوقت الذي يكون فيه في أمس الحاجة إليها، فهو كما يقول قطب أطول الأحياء طفولة؛ تمتد طفولته أكثر من أى طفل آخر للأحياء الأخرى، ذلك أن مرحلة الطفولة هي فترة إعداد وتهيؤ وتدريب للدور المطلوب من كل حى باقى حياته، ولما كانت وظيفة الإنسان هي أكبر وظيفة،

ودوره فى الأرض هو أضخم دور، امتدت طفولته فترة أطول، ليحسن إعداده وتدريبه للمستقبل، ومن ثم كانت حاجته لملازمة أبويه أشد من حاجة أى طفل لحيوان آخر، وكانت الأسرة المستقرة الهادئة ألزم للنظام الإنساني، وألصق بفطرة الإنسان وتكوينه ودوره فى هذه الحياة^(٦٧).

وفى إرضاع الأطفال وحضانتهم يقول تعالى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ^ط لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ^ع وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ^ط فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا^ط وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا^ط أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٣٣)

والتعبير عن الأمهات بالعنوان المذكور "الوالدات" لهُو عطفهن نحو أولادهن، وإضافة الولد إلى كل منهما فى قوله: ﴿أَوْلَدَهُنَّ﴾ وقوله: ﴿الْمَوْلُودَ لَهُ﴾ لاستعطافهما إليه، وللتنبية على أنه جدير بأن يتفقا على استصلاحه، ولا ينبغي أن يضرا به، أو يتضارا بسببه^(٦٨).

يقول قطب: "الإسلام يجعل الأسرة المحضن الذى تدرج فيه الفراخ الخضر وتكبر؛ وتتلقى رصيدها من الحب والتعاون والتكافل والبناء، والطفل الذى يحرم من محضن الأسرة ينشأ شاذاً غير طبيعى فى كثير من جوانب حياته - مهما توفرت له وسائل الراحة والتربية فى غير محيط الأسرة -" (٦٩).

والأم التى هى أحد ركنى نواة الأسرة، تقوم برعاية شاملة لأطفالها قبل الولادة وبعدها، بدوافع فطرية ومكتسبة، بأجرة أو بدونها، فهى تحمل بالجنين، ثم ترضع الطفل، وتحضنه وتربيته، ويعاونها وهى تقوم بذلك زوجها - والد الطفل - فى تأمين المستلزمات المطلوبة لتحقيق كامل الرعاية المستطاعة لهذا الطفل الوديع، ومما لا شك فيه أن الأم تتكبد كثيراً من العناء جراء الحمل، فيقول تعالى ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا^ط وَحَمَلُهُ^ط وَفِصْلُهُ^ط ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف: ١٥) والمراد بالفصال الرضاع التام المنتهى بالفطام، والآية بيان لما تكابده الأم وتقاسيه فى تربية الولد مبالغة فى التوصية لها، ولذا اعتنى الشارع ببرها فوق الاعتناء ببر الأب^(٧٠).

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ:

ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ^(٧١).

يقول ابن كثير: أى أن الأم تقاسى بسببه فى حال حمله مشقةً وتعباً من وحم وغثيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أى بمشقة أيضاً من الطلق وشدته^(٧٢).

ولأهمية الرعاية التى تقوم بها الأسرة، فإن الله نسب إلى نفسه القيام بها لبعض أوليائه، فأخبر تعالى عن رعايته مريم عليها السلام، فقال سبحانه: ﴿وَأُنَبِّتُهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (آل عمران: ٣٧) لقد تعهدت عين الله رعاية مريم، وتربيتها، وجاء فى هذا الإطار إسناد كفالتها لزكريا. قال الزجاج معنى ﴿وَأُنَبِّتُهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أى رباها تربية حسنة، وجعل نشوءها نشوءاً حسناً. وقال ابن الأنباري: لما كان أنبت يدل على نبت، حمل الفعل على المعنى، فكأنه قال: وأنبتها فنبتت هى نباتاً حسناً^(٧٣).

وقيل: هو مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها فى جميع أحوالها^(٧٤).
وقيل: إن الله تعهد بها بما يصلحها فى سائر أحوالها^(٧٥).
ويسر الله لمريم زكريا كافلاً، وهذا من منة الله عليها أن جعل من يتولى تربيتها مرب من الكاملين المصلحين، فضمها زكريا إلى إنفاقه وحضائته، والكافل هو الحاضن والمربى، وهو الذى ينفق على إنسان ويهتم بإصلاح مصالحه، قال الله تعالى: ﴿أَكْفَلْنِيهَا﴾^(٧٦).
وفى الحديث، عن أبى هريرة قال: " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لَغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى^(٧٧).

وأخبر سبحانه عن قيامه برعاية محمد صلى الله عليه وسلم ﴿أَلَمْ تَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ (الضحى: ٦) فجعل لك مأوى إذ ضمك إلى عمك أبى طالب، فكفاك المؤونة، وهذا قول مقاتل. قال ابن السائب: جعل لك مأوى لنفسك، أغناك عن كفالة أبى طالب^(٧٨).

١٧) تقوم الأسرة بدور فاعل فى ترسيخ العقائد، وبناء الأفكار، وتحديد الأنماط الخلقية والسلوكية التى تسود المجتمعات، فهذا لقمان الحكيم أنعم الله عليه بالحكمة، فانبرى لتهديب ولده بغرس الفضيلة وانتزاع الرذيلة من قلبه وسلوكه ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ هُوَ يَعْظُهُ﴾

إن نصيحة الأب لابنه مبرأة من العيب، فهى غير متهمة، إذ إن الوالد يحرص على نصح

ولده؛ لأنه ما يريد له إلا الخير، وها هما إبراهيم ويعقوب عليهما السلام يحرصان على تربية أبنائهم، على منهاج الدين، قال تعالى ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٢-١٣٣).

الإسلام الخالص الصريح هو ملة إبراهيم، ولم يكتف إبراهيم بأن يسلم بنفسه، إنما تركها في عقبه، وجعلها وصيته في ذريته، ووصى بها إبراهيم بنيه، كما وصى بها يعقوب - إسرائيل - بنيه^(٧٩).

ومن أهم ما يمكن أن يوصى به الوالد ولده هو التوحيد والتزام شريعة الله، والتحلى بالأخلاق والقيم المنبثقة عنها أو المنسجمة معها، وهذا ما فعله إبراهيم ويعقوب عليهما السلام ولقمان الحكيم وغيرهم من الأنبياء والصالحين، ويقصد بالتوصية التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة، سواء كان في حالة الاحتضار أولاً، وسواء أكان ذلك التقدم بالقول أم الدلالة، وإن كان الشائع في العرف استعمالها في القول المخصوص حالة الاحتضار، وما اكتفى إبراهيم بالامتنال بل ضم توصية بنيه بالإسلام، وخص البنين لأنه عليهم أشفق، وهم بقبول وصيته أجدر، ولأن النفع بهم أكثر^(٨٠).

فيعقوب عليه السلام لم يغيب عن باله رغم أنه في حالة الاحتضار أن يهتم بتوجيه أبنائه، والاطمئنان على حسن تربيتهم وتوجههم، يقول قطب: "إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار، لمشهد عظيم الدلالة، قوى الإيحاء، عميق التأثير.. ميت يحتضر. فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟ ما هو الشاغل الذي يعنى خاطره وهو في سكرات الموت؟ ما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه؟ ما هي التركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه، ويحرص على سلامة وصولها إليهم، فيسلمها لهم في محضر، يسجل فيه كل التفصيلات؟ إنها التربية على العقيدة.. ما تعبدون من بعدي؟ هذا هو الأمر الذي جمعتكم من أجله، وهذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها، وهذه هي الأمانة والذخر والتراث"^(٨١).

١٨) تتعدى أهمية الأسرة في ضوء القرآن الكريم مجال الأسرة النووية لتشمل أيضاً الأسرة

الممتدة - الواسعة - ويمكن ملاحظة هذه الأهمية من دلالات وجوانب عديدة، منها:

* عناية النصوص القرآنية بالتشريع للأسرة الواسعة، كالنص على بعض الأحكام الخاصة بتنظيم العلاقات داخل هذا النوع من الأسر، فبين أن لأفراد هذه الأسر استثناءً من بعض الأحكام، ومن ذلك ما يتضمنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ

بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ﴿ (النور: ٦١) ﴾

تشير هذه الآية الكريمة إلى خصوصية في التعامل مع بيوت الأقارب، فبينت إباحة الأكل من البيوت المذكورة، إن أذن أصحابها له في ذلك، عند بعض العلماء، وقال آخرون أذنوا له أو لم يأذنوا فله أن يأكل، لأن القرابة التي بينهم هي إذن منهم، وذلك لأن في تلك القرابة عطفًا تسمح النفوس منهم بذلك العطف أن يأكل هذا من شيعتهم، ويسروا بذلك إذا علموا.

وأباح ابن العربي الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مبدولاً، فإذا كان محرراً دونهم، لم يكن لهم أخذه، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الادخار، ولا إلى ما ليس بمأكول، وإن كان غير محرر عنهم إلا بإذن منهم^(٨٢).

مناسبة تشريع هذا الحكم: قيل كان الرجل إذا ساق أهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئاً، ذهب به إلى بيوت قرابته، فتخرج أهل الأعداء من ذلك، فنزلت الآية^(٨٣).

وقيل كانت هؤلاء الطوائف يتخرجون من مؤاكلة الأصحاء، حذاراً من استقذارهم إياهم، وخوفاً من تأذيتهم بأفعالهم وأوضاعهم، حذاراً من استقذارهم، فإن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت إليه عين أكله، وهو لا يشعر به، والأعرج يتفصح في مجلسه، فيأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليس، والمريض لا يخلو عن حالة تؤذى قرينه.

قوله ﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ أى البيوت التى فيها أزواجكم وعيالكم، فيدخل فيها بيوت الأولاد؛ لأن بيتهم كبيتهم، فقد ورد فى صحيح ابن حبان عن عائشة رضى الله عنها، أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاصم أباه فى دين عليه، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: "أنت ومالك لأبيك" قال أبو حاتم معناه أنه صلى الله عليه وسلم زجر عن معاملته أباه بما يعامل به الأجنيبين، وأمر ببره والرفق به فى القول والفعل معاً إلى أن يصل إليه ماله، فقال له: أنت ومالك لأبيك، لا أن مال الابن يملكه الأب فى حياته عن غير طيب نفس من الابن به^(٨٤).

وفيه عن عائشة أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه"^(٨٥).

﴿ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ من البيوت التى تملكون التصرف فيها بإذن أربابها^(٨٦).

فرفعت الآية الحرج عن الأكل من البيوت التى يملك التصرف فيها بإذن أربابها، أى البيوت التى

فيها الأزواج والعيال، فيدخل فيها بيوت الأولاد؛ لأن بيتهم كبيتهم، فقد ورد في المستدرك على الصحيحين، عن عمارة بن عمير عن عمته، أنها سألت عائشة: في حجرى يتيم فأكل من ماله؟ فقالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من أطيب ما أكل الرجل من كسبه وولده من كسبه" (٨٧).

يقول الجصاص في أحكام القرآن: الدليل على أنه أراد بيوت الابن وابن الابن أنه قد كان معلوماً قبل ذلك أن الإنسان غير محظور عليه مال نفسه، فإنه لا وجه لقول القائل لا جناح عليك في أكل مال نفسك كون مال الولد مال لأبيه، فدل ذلك على أن المراد بقوله: ﴿ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ هي بيوت الأبناء، وأبناء الأبناء؛ إذ لم يذكرهما جميعاً كما ذكر سائر الأقرباء (٨٨).

يقول قطب: "ترتب هذه الآيات القرابات. فهي تبدأ ببيوت الأبناء والأزواج ولا تذكرهم، بل تقول: من بيوتكم، فيدخل فيها بيت الابن وبيت الزوج، فبيت الابن بيت لأبيه، وبيت الزوج بيت لزوجته، وتليها بيوت الآباء، فبيوت الأمهات. فبيوت الإخوة، فبيوت الأخوات، فبيوت الأعمام، فبيوت العمات، فبيوت الأخوال، فبيوت الخالات.. ويضاف إلى هذه القرابات الخازن على مال الرجل، فله أن يأكل مما يملك مفاتحه بالمعروف، ولا يزيد على حاجة طعامه، ويلحق بها بيوت الأصدقاء، ليلحق صلتهم بصلة القرابة، عند عدم التأذى والضرر، فقد يسر الأصدقاء أن يأكل أصدقاؤهم من طعامهم بدون استئذان" (٨٩).

* ومن الدلالات القرآنية التي تشير إلى أهمية الأسرة الممتدة من خلال الاهتمام بالتشريع لها، أن جعل الله سبحانه وتعالى حدوداً خاصة لعورات النساء الواجب سترها، وحدوداً لزينتهن المسموح إظهارها أمام بعض عناصر الأسرة الواسعة — الممتدة — ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ (النور: ٣١).

* ومن الخصوصيات التي يتمتع بها أبناء الأسرة الواحدة، منحهم أفضلية الحصول على الإنفاق من أموال ذويهم. يقول تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (البقرة: ٨٣) ﴿ وَآثَى الْمَالِ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (البقرة: ١٧٧) حثت الآيات الكريمة السابقة لهذه على بر الوالدين، وتأتى هذه توصى بالبر بذوى القربى، فى إشارة إلى أن البر يبدأ بذوى القربى، قرابة خاصة أو عامة، ثم يتسع نطاقه؛ ليشمل فئات المجتمع الإنسانى الأكبر، عنى بقوله ذوى القربى ذوى قرابة مؤدى المال على حبه، فورد فى صحيح ابن حبان، والمستدرك على الصحيحين، عن أبى هريرة رضى الله

عنه، أنه قال: "يا رسول الله أى الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل، وابدأ بمن تعول" (٩٠).

وعن أم كلثوم بنت عقبة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح" (٩١). قيل فى تأويل الكاشح ها هنا القريب، وقيل المبغض المعادي، فإنه طوى بكشحه على بغضه وعداوته. ويرى ابن عبد البر أن هذا هو الصحيح، والله أعلم (٩٢).

فذوو القربى أولى من أعطى من الصدقة، كما ورد فى الأثر: [الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوى الرحم اثنتان صدقة وصله] (٩٣). فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك وإحسانك، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم فى غير موضع من كتابه العزيز (٩٤).

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: [أفضل الصدقة ما ترك غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، تقول المرأة إما أن تطعمنى وإما أن تطلقتنى، ويقول العبد أطعمنى واستعملنى، ويقول الابن أطعمنى إلى من تدعنى. فقالوا: يا أبا هريرة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا، هذا من كيس أبى هريرة] (٩٥).

ورعاية ذوى القربى لا تقتصر على توفير الحاجات المالية، وإنما تشمل تأمين مجالات الرعاية كافة للأقارب الذين تتوجع لمصابهم وتفرح بسرورهم، فمن أحسن البر وأوفقه تعاود الأقارب بالإحسان المالى والقولى، على حسب قربهم وحاجتهم (٩٦). (والإحاش من ذوى القربى أشد وأصعب من غيرهم) (٩٧). وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على القلب من وقع الحسام المهند (٩٨).

* ومن دلالات أهمية الأسرة من خلال شؤون ذوى القربى فى ضوء القرآن الكريم، أن جعل الله تعالى رعاية ذوى القربى واليتامى ضمن قائمة الأفعال المفضية إلى البر الحقيقى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۗ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۗ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧)

* ومن تلك الدلالات الحث المكثف على صلة الأرحام، والإحسان لذوى القربى ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (الأففال: ٧٥، والأحزاب: ٦) والأرحام تستعمل فى القرآن لعموم القرابة (٩٩).

* وفى دلالة أخرى على أهمية الأسرة أن جعل بينهم توارث التركات، وجعل القرآن الكريم

لأعضاء الأسر الممتدة خصوصية مالية أخرى تتعلق بالحث على منح غير الوارث منهم نصيباً من الموارث: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء: ٨)

يقول قطب: لما كانت روابط الأسرة - القريبة والبعيدة - روابط فطرية حقيقية؛ لم يصطنعها جيل من الأجيال؛ ولم تصطنعها جميع الأجيال بطبيعة الحال! لما كان الأمر كذلك، جعل الإسلام التكافل في محيط الأسرة، هو حجر الأساس في بناء التكافل الاجتماعي العام، وجعل الإرث مظهراً من مظاهر ذلك التكافل في محيط الأسرة. فوق ما له من وظائف أخرى في النظام الاقتصادي والاجتماعي العام.

إن الوالدين والأجداد والأقرباء عامة، لا يورثون أبناءهم وأحفادهم وأقاربهم المال وحده، إنما يورثونهم كذلك الاستعدادات الخيرة والشريرة، والاستعدادات الوراثية للمرض والصحة، والانحراف والاستقامة، والحسن والقبح، والذكاء والغباء.. إلخ. وهذه الصفات تلاحق الوارثين وتؤثر في حياتهم. فمن العدل إذن أن يورثوهم المال^(١٠٠).

*ومن دلالات أهمية الأسرة من خلال ذوى القربى فى ضوء القرآن الكريم، الإشارة إلى أن ود الأقارب أمر منشود، وقاسم مشترك بين الأسوياء من الناس ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى: ٢٣) فالرسول صلى الله عليه وسلم قال لأهل مكة بأنه لا يسألهم على ما جاءهم به أجراً، إلا المودة فى القربى، قال مقاتل: يعنى إلا أن تصلوا قرابتي، وتكفوا عنى الأذى، ثم نسخ بقوله: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾. ويقال إلا المودة فى القربى: يعنى إلا ألا تؤذوننى بقرابتي منكم، وقال سعيد بن جبیر: يعنى إلا أن تصلوا قرابة ما بينى وبينكم، قال ابن عباس ليس حى من أحياء العرب إلا وللنبي صلى الله عليه وسلم فيه قرابة، وقال الحسن: يعنى إلا أن تتوددوا إلى الله تعالى بما يقربكم منه، وهكذا قال مجاهد^(١٠١).

ورد فى النسفي: "يجوز أن يكون الاستثناء هنا متصلاً أى لا أسألكم عليه أجراً إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي، ويجوز أن يكون منقطعاً، أى لا أسألكم أجراً قط، ولكنى أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم، وقيل القربى التقرب إلى الله تعالى، أى إلا أن تحبوا الله ورسوله فى تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح"^(١٠٢).

المعنى هو أنه لا يطلب منهم أجراً، إنما تدفعه المودة للقربى — وقد كانت لرسول الله صلى

الله عليه وسلم قرابة بكل بطن من بطون قريش — ليحاول هدايتهم بما معه من الهدى، ويحقق الخير لهم إرضاء لتلك المودة التي يحملها لهم، وهذا أجره وكفى!

وورد في صحيح البخاري: عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن قوله ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى﴾ فقال سعيد بن جبیر: "قربى آل محمد صلى الله عليه وسلم. فقال ابن عباس: عجلت، إن النبی صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: "إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة" (١٠٣).

ويكون المعنى على هذا: إلا أن تكفوا أذاكم مراعاة للقرابة، وتسمعوا وتلينوا لما أهدىكم إليه، فيكون هذا هو الأجر الذى أطلبه منكم لا سواء.

ويرى قطب، أن تأويل ابن عباس — رضى الله عنهما — أقرب من تأويل سعيد بن جبیر، ولكنه يرى أن ذلك المعنى أقرب وأندى.. والله أعلم بمراده منا، ويقول: "وعلى أية حال فهو يذكرهم — أمام مشهد الروضات والبشريات — أنه لا يسألهم على شيء من هذا أجرًا، ودون هذا بمراحل يطلب عليه الإدلاء أجرًا ضخماً! ولكنه فضل الله الذى لا يحاسب العباد حساب التجارة، ولا حساب العدل، ولكن حساب السماحة وحساب الفضل (١٠٤).

فهذه بعض المواضع التى وردت فى القرآن الكريم فى مجال الحث على العناية بالرحم والأقارب، والتى تظهر مدى الاهتمام الذى أولاه القرآن الكريم للأحكام الخاصة بالأسرة فى صورتها النووية والممتدة، بما يوحى بجليل قدر الأسرة، وأهمية شأنها.

- (١) الأندلسي، ١٩٩٣م، ج ٥، ص ٤٨٣، وابن كثير، ١٤٠١هـ، ج ٤، ص ٥١٢.
- (٢) ابن كثير، ١٤٠١هـ، ج ٤، ص ٥١٢.
- (٣) الشنقيطي، ١٤١٥هـ، ج ٨، ص ٤٤٣.
- (٤) قطب، ١٩٧٨م، ج ٣٠م، ٦، ص ٣٩٠٩.
- (٥) قطب، ١٩٧٨م، ج ٢م، ١، ص ٢٤٢، ٢٤٣.
- (٦) السيوطي، ١٩٩٣، ج ٤، ص ٤٥١، والبغوي، د.ت، ج ٢، ص ٣٩٣، وأبو السعود، د.ت، ج ٤، ص ٢٢٦.
- (٧) البخاري، ١٩٨٧، ج ٢، ص ٥٤٤، ج ٥، ص ٢٣٣٣.
- (٨) مسلم، د.ت، ج ١، ص ٤٥٧.
- (٩) ابن كثير، ١٤٠١هـ، ج ٢، ص ٥٨١.
- (١٠) الكلبي، ١٩٨٣، ج ٢، ص ١٥٩، والرازي، ١٤٢١هـ، ج ٢٠، ص ٧٤.
- (١١) ابن تيمية، ١٤٠٤هـ، ج ١٥، ص ٢١٩.
- (١٢) قطب، ١٩٧٨م، ج ٢٨م، ٦، ص ٣٥٩٥.
- (١٣) قطب، ١٩٧٨م، ج ١٤م، ٤، ص ٢١٨٦ — ٢١٨٧.
- (١٤) ابن منظور، د.ت، ج ١١، ص ٢٨.
- (١٥) الحاكم النيسابوري، ١٩٩٠م، ج ١، ص ٧٤٣.
- (١٦) ابن منظور، د.ت، ج ١١، ص ٣٠.
- (١٧) ابن منظور، د.ت، ج ١١، ص ٣٨.
- (١٨) الشنقيطي، ١٤١٥هـ، ج ٢، ص ١٩١.
- (١٩) الشنقيطي، ١٤١٥هـ، ج ٦، ص ٢٣٨.
- (٢٠) الرازي، ١٤٢١هـ، ج ٣، ص ٦٣.
- (٢١) الرازي، ١٤٢١هـ، ١٧، ص ٩٩.
- (٢٢) الزمخشري، د.ت، ج ١، ص ٣٩٧.
- (٢٣) أبو السعود، د.ت، ج ٤، ص ٣٠٥.
- (٢٤) السيوطي، ١٩٩٣، ج ٦، ص ٤٩٠، وابن كثير، ١٤٠١هـ، ج ٢، ص ٢٧٥.
- (٢٥) السيوطي، ١٩٩٣، ج ٥، ص ١٤٨.
- (٢٦) الرازي، ١٤٢١هـ، ج ٢٠، ص ٦٥.
- (٢٧) ابن الجوزي، ١٤٠٤هـ، ج ٦، ص ٢٩٥ — ٢٩٦.
- (٢٨) السعدى ج ١، ص ٦٣٩.
- (٢٩) ابن الجوزي، ١٤٠٤هـ، ج ٦، ص ٢٩٥ — ٢٩٦، والنحاس، ١٤٠٩هـ، ١٤٠٩هـ، ج ٥، ص ٢٥١ — ٢٥٣.
- (٣٠) الشنقيطي، ١٤١٥هـ، ج ٢، ٤١٢.
- (٣١) السيوطي، ١٩٩٣، ج ٦، ص ٤٩٠، والنسفي، د.ت، ج ٣، ص ٢٧٠ — ٢٧١، والقرطبي، ج ١٤، ص ١٧.
- (٣٢) القرطبي ج ١٤، ص ١٧.

- (٣٣) ابن كثير ، ١٤٠١هـ، ج٢، ص٢٧٥.
- (٣٤) النسفي، د.ت، ج٣، ص٢٧٠-٢٧١.
- (٣٥) السيوطي، ١٩٩٣، ج٦، ص٤٩٠، والنسفي، د.ت، ج٣، ص٢٧٠-٢٧١، والقرطبي، ج١٤، ص١٧، والنحاس، ١٤٠٩هـ - ج٥، ص٢٥١-٢٥٣.
- (٣٦) القرطبي، ج١٤، ص١٧.
- (٣٧) النسفي، د.ت، ج٣، ص٢٧٠-٢٧١.
- (٣٨) القرطبي، ج١٤، ص١٧، والنحاس، ١٤٠٩هـ، ج٥، ص٢٥١-٢٥٣.
- (٣٩) ابن الجوزي، ١٤٠٤هـ، ج٦، ص٢٩٥-٢٩٦.
- (٤٠) النسفي، د.ت، ج٣، ص٢٧٠-٢٧١.
- (٤١) قطب، ١٩٧٨م، ج٢، م١، ص٢٤٢-٢٤٣.
- (٤٢) الألوسي، د.ت، ج١٩، ص٥٢-٥٣.
- (٤٣) الشوكاني، د.ت، ج٤، ص٨٩، والرازي، ١٤٢١هـ، ١٤٢١هـ، ج٢٤، ص١٠٠-١٠١.
- (٤٤) الألوسي، د.ت، ج١٩، ص٥٢-٥٣.
- (٤٥) ابن الجوزي، ١٤٠٤هـ، ج٦، ص١١١.
- (٤٦) ابن كثير، ١٤٠١هـ، ج٣، ص٣٣٠-٣٣١.
- (٤٧) ابن كثير، ١٤٠١هـ، ج١، ص١٨٤.
- (٤٨) قطب، ١٩٧٨م، ج١٩، م٥، ص٢٥٨٠-٢٥٨١.
- (٤٩) الشنقيطي، ١٤١٥هـ، ج٨، ص٢٢٥.
- (٥٠) ابن كثير، ١٤٠١هـ، ج٢، ص٢٧٥، والسيوطي، ١٩٩٣، ج٥، ص١٤٨.
- (٥١) قطب، ١٩٧٨م، ج٥، م٢، ص٦٤٩.
- (٥٢) قطب، ١٩٧٨م، ج٥، م٢، ص٦٤٨.
- (٥٣) قطب، ١٩٧٨م، ج٥، م٢، ص٦٤٩-٦٥٣.
- (٥٤) ابن منظور، د.ت، ج٦، ص٢٠٣.
- (٥٥) ابن منظور، د.ت، ج١١، ص١٧٣.
- (٥٦) ابن العربي، د.ت، ج١، ص١٢٨.
- (٥٧) الرازي، ١٤٢١هـ، ج٥، ص٩٠-٩١.
- (٥٨) ابن الجوزي، ١٤٠٤هـ، ج١، ص١٩١.
- (٥٩) قطب، ١٩٧٨م، ج٢، م١، ص٢٣٤-٣٥٢.
- (٦٠) قطب، ١٩٧٨م، ج٨، م٣، ص١٢٦٧-١٢٦٨.
- (٦١) ابن منظور، د.ت، ج٢، ص٢٩١-٢٩٢.
- (٦٢) ابن كثير، ١٤٠١هـ، ج٤، ص٢٣٨، والبلغوي، د.ت، ج٤، ص٢٣٤، والسيوطي، ١٩٩٣، ج٧، ص٦٢٣، والأندلسي، ١٩٩٣م، ج٥، ص١٨١.
- (٦٣) عناوسة، ١٩٩٦.
- (٦٤) قطب، ١٩٧٨م، ج٢، م١، ص٢٤٢-٢٤٣.

- (٦٥) السعدي، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١٦٤.
- (٦٦) البخاري، د. ت، ج ٥، ص ١٩٥٨، ومسلم، ج ٢، ص ١٠٨٦.
- (٦٧) قطب، ١٩٧٨م، ج ٢، م ١، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.
- (٦٨) أبو السعود، د. ت، ج ١، ص ٢٣٠.
- (٦٩) قطب، ١٩٧٨م، ج ٢٦، م ٦، ص ٣٢٦١ - ٣٢٦٢.
- (٧٠) الألوسي، د. ت، ج ٢٦، ص ١٧ - ١٨.
- (٧١) البخاري، ١٩٨٧، ج ٥، ص ٢٢٢٧، ومسلم، د. ت، ج ٤، ص ١٩٧٤.
- (٧٢) ابن كثير، ١٤٠١هـ، ج ٤، ص ١٥٨.
- (٧٣) ابن الجوزي، ١٤٠٤هـ، ج ١، ص ٣٧٧.
- (٧٤) الشوكاني، د. ت، ج ١، ص ٣٣٥.
- (٧٥) الألوسي، د. ت، ج ٣، ص ١٣٩.
- (٧٦) الرازي، ١٤٢١هـ، ج ٨، ص ٢٦، والسعدي، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١٢٩، والكلبي، ١٩٨٣م، ج ١، ص ١٠٥،
والثعالبي، د. ت، ج ١، ص ٢١٦.
- (٧٧) مسلم، د. ت، ج ٤، ص ٢٢٨٧.
- (٧٨) ابن الجوزي، ١٤٠٤هـ، ج ٩، ص ١٥٨.
- (٧٩) قطب، ١٩٧٨م، ج ١، م ١، ص ١١٦.
- (٨٠) (الألوسي، د. ت، ج ١، ص ٣٨٩ - ٣٩١).
- (٨١) قطب، ١٩٧٨م، ج ١، م ١، ص ١١٦.
- (٨٢) القرطبي، د. ت، ج ١٢، ص ٣١٤ - ٣١٥.
- (٨٣) القرطبي، د. ت، ج ١٢، ص ٣١٤ - ٣١٥.
- (٨٤) ابن حبان، ١٩٩٣م، ج ٢، ص ١٤٢.
- (٨٥) ابن حبان، ١٩٩٣م، ج ١٠، ص ٧٣.
- (٨٦) أبو السعود، د. ت، ج ٦، ص ١٩٥ - ١٩٦.
- (٨٧) الحاكم النيسابوري، ١٩٩٠م، ج ٢، ص ٥٣، وأبو السعود، د. ت، ج ٦، ص ١٩٥ - ١٩٦.
- (٨٨) الجصاص، ١٤٠٥هـ، ج ٢، ص ١١١.
- (٨٩) قطب، ١٩٧٨م، ج ١٨، م ٤، ص ٢٥٣٣ - ٢٥٣٤.
- (٩٠) ابن حبان، ١٩٩٣م، ج ٨، ص ١٣٤، والحاكم النيسابوري، ١٩٩٠م، ج ١، ص ٥٧٤، وقال: هذا حديث صحيح
على شرط مسلم ولم يخرجاه.
- (٩١) ابن خزيمة، ١٩٧٠م، ج ٤، ص ٧٨، والطبري، ١٤٠٥هـ، ج ٢، ص ٩٧، والحاكم النيسابوري، ١٩٩٠، ج ١،
ص ٥٦٤، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وله شاهد بإسناد صحيح.
- (٩٢) ابن عبد البر، ١٣٨٧، ج ١، ص ٢٠٧.
- (٩٣) الحاكم النيسابوري، ١٩٩٠، ج ١، ص ٥٦٤.
- (٩٤) ابن كثير، ١٤٠١هـ، ج ١، ص ٢٠٩.
- (٩٥) البخاري، د. ت، ج ٥، ص ٢٠٤٨.

- (٩٦) السعدي، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٨٣.
(٩٧) الرازي، ١٤٢١هـ، ج ٣٢، ص ١٢٩.
(٩٨) الألوسي، د.ت، ج ١٥، ص ٧٩.
(٩٩) الشنقيطي، ١٤١٥هـ، ج ٨، ص ٨٤.
(١٠٠) قطب، ١٩٧٨م، ج ٤، م ١، ص ٥٨٦ - ٥٨٨.
(١٠١) السمرقندي، د.ت، ج ٣، ص ٢٣٠، والواحي، ١٤١٥هـ، ج ٢، ص ٩٦٤.
(١٠٢) النسفي، د.ت، ج ٤، ص ١٠١.
(١٠٣) البخاري، ج ٤، ص ١٨١٩.
(١٠٤) قطب، ١٩٧٨م، ج ٢٥، م ٥، ص ٣١٥٣ - ٣١٥٤.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم
٢. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير، الكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ، ط ٣.
٣. ابن العربي، أبو بكر، أحكام القرآن، دار الفكر للطباعة، لبنان، د.ت
٤. ابن تيمية، أحمد عبد الحليم، رسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير، مكتبة ابن تيمية، ط ٢، د.ت
٥. ابن حبان، محمد، صحيح ابن حبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ، ط ٢.
٦. ابن خزيمة، أبو عبد الله محمد بن إسحاق، صحيح ابن خزيمة، د.ت.
٧. ابن عبد البر، الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار، دار قتيبة، دمشق، ١٤١٤هـ، ط ١.
٨. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ١.
٩. أبو السعود، محمد العمادي، تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت.
١٠. الألوسي، محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٧م.
١١. الأندلسي، ابن عطية، المحرر الوجيز، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤١٣هـ، ط ١.
١٢. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفى البغا، دار ابن كثير، دمشق - بيروت.
١٣. البغوي، الحسن مسعود، تفسير البغوي، د.ت.
١٤. الثعالبي، عبد الرحمن ناصر، تفسير الثعالبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، د.ت.
١٥. الجصاص، أحمد بن علي، أحكام القرآن، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٠٥هـ.
١٦. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين، تحقيق: مصطفى بن عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، ط ١.
١٧. الرازي، فخر الدين محمد، التفسير الكبير، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٠م.
١٨. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت.
١٩. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تفسير السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ.
٢٠. السمرقندي، نصر بن محمد أبو الليث، تفسير السمرقندي، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٢١. السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م
٢٢. الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان، دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٤١٥هـ.
٢٣. الشوكاني، محمد علي، فتح القدير، دار الفكر، بيروت، د.ت.
٢٤. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
٢٥. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٩٧٨م.
٢٦. كثير، إسماعيل عمر، تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.
٢٧. الكلبي، محمد أحمد الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي، لبنان، ١٤٠٣هـ، ط. ٤.
٢٨. النحاس، معاني القرآن، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٩هـ، ط. ١.
٢٩. النسفي، عبد الله بن أحمد، تفسير النسفي، دار إحياء الكتب العربية، د.ت.
٣٠. النيسابوري، مسلم الحجاج، صحيح مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت.
٣١. الواحدي، تفسير الواحدي، علي بن أحمد أبو الحسن، دار القلم، الدار، دمشق، بيروت، ١٤١٥هـ، ط. ١.